www.nidaulhind.com

تطور المساجد في التاريخ الإسلامي

(٢)

الدكتور شوكت محمد عليان
أستاذ الثقافة الإسلامية - الرياض

☆ رسالة المسجد :

ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية بالمسجد ارتباطاً وثيقاً ، وذلك لأن الإسلام لم يقصر رسالة المسجد على أداء الصلوات الخمس فحسب ، بل أراد رسول اللّه ﷺ أن يكون للمسجد دور إيجابي ، وأهداف سامية تخدم المجتمع الإسلامي ككل ، فبجانب أداء الصلوات الخمس هو موطن تلاوة وتدبر لكتاب اللّه عزّوجل .

قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن اللّه أن تُرفع ويذكر فيها اسمه * يُسبح له فيها بالغُدوّ والآصال * رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه * وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة * يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا * ويزيدهم من فضله * واللّه يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [النور/٣٦-٣٨] و معهد علم و تهذيب ، و مجلس صلح و قضاء ، و ملتقى تعاون وتكافل ، ومحل تشاور المسلمين وتناصحهم فيما بينهم ، ومركز القيادة العسكرية ، وعقد الألوية للجيوش المجاهدة في سبيل اللّه ، ومكان للضيافة ، واستقبال الوفود القادمة على رسول اللّه ﷺ ، ثم هو قبل ذلك كله مقر الإعلان .

العبودية الخالصة لله عزّوجل : ﴿ وأن المساجد لله * فلا تدعو مع اللّه أحداً ﴾ [الجن/١٨] وهو في رسالته وتعدد مجالاته ، وتوسع ميادين عمله في مفهوم الإسلام وعلم المسلمين يختلف عن مفهوم دور العبادة عند أصحاب الديانات الأخرى من يهود ونصارى وغيرهم ، فدور العبادة عند أصحاب الديانات قاصرة على أداء شعائر العبادات لا سواها ، وهذا يرجع إلى أن العبادة في مفهوم الإسلام شاملة لجميع أقوال وأفعال الإنسان إذا قصد بها وجه اللّه سبحانه وتعالى .

www.nidaulhind.com

وإذا كان صحة العمل شرط أساسي في قبوله عند اللّـه ، فلابد أن يقوم المسجد بدور تحصيل العلم ونشره لكل مؤمن برسالة الإسلام ، ليكون ما يقوم به الإنسان من عمل مبنياً على علم صحيح ، فالعلم إمام العمل .

هذه هي وظيفة المسجد في كل وقت وكل زمان ، لأن رسالة المسجد هي رسالة توحيد وهدى وحق وخير ، ورسالة وفاق و وحدة واعتصام بحبل اللّه ، لقد كان مسجد رسول اللّه ﷺ في المدينة هو الجامعة الأولى التي ربى فيها رسول اللّه ﷺ أصحابه على يديه خير تربية حتى فقهوا في دين اللّه لحضورهم حلقات الدروس التي كان يلقيها عليهم رسول اللّه ﷺ ، وهكذا كان المسجد مدرسة لصنع الرجال وتخريج الأبطال إذ صاغ بالقرآن من رعاة الإبل وعباد الأصنام أئمة الهدي والحق والعدل ، ساحوا في الأرض ينشرون العلم والمعرفة والإسلام والسلام ، يمدون الانسانية بقيم لم تألفها ، ومثل لم تعرفها ، ويبعثون الحياة في آفاق الوجود ، فهو صلة الأرض بالسماء ، فقد صنع من تلك الفلول المتناحرة أمة لم يعرف لها التاريخ البشري مثيلاً ، وتخرج فيه كتائب المؤمنين ، وأفواج الصالحين ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، والمقداد بن عمر ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح ، وغيرهم كثير ، فهؤلاء وأمثالهم هم الذين فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم وتمسكهم بأهداب الدين ، كما تخرج من المسجد أيضاً العلماء الجهابذة ، والفقراء والمحدثون من أمثال : عبد اللّه بن عباس ، وعبد اللّه بن مسعود ، وأبي حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم وغيرهم كثير ، فكان هؤلاء وأمثالهم مصابيح الهدى ، وشموس العلم والمعرفة ، اغترف الناس من بحار علومهم واقتبسوا من كنوز أدبهم ومعارفهم وأخلاقهم ، فمن حلقات الدروس التي تلقى في المساجد عرف العلماء ، وبرز الفقهاء والمحدثون ، فمن مسجد رسول اللّه ﷺ تألق الإمام مالك بن أنس ، ومن جامع الفسطاط بمصر تألق محمد بن إدريس الشافعي ، وفي مسجد الكوفة وبغداد تألق أبو حنيفة النعمان ، وفي بغداد تألق شيخ السنه أحمد بن حنبل ، ومن رجال الحديث أمثال : إسحاق ابن راهويه والبخاري ومسلم والفرندي وابن ماجة والنسائي وابن خزيمة

www.nidaulhind.com

وغيرهم فكل هؤلاء وأمثالهم تلقوا تعليمهم في المسجد ، ومن منارة المسجد تعلو أصوات المؤذنين وتتكرر كلمات التوحيد .

وقد كان المسجد في عصور الإسلام الزاهرة أمل الشباب ومكانهم المفضل ، حيث ارتبط أقوى ارتباط بالتربية الإسلامية في عصورها المزدهرة ، فمنذ النشأة الأولى للمسجد في الإسلام ، وحلقات الدروس تقام فيه على يد كبار العلماء لشرح أصول الدين الحنيف ، و توضيح أحكامه ، و إظهار محاسنه ، وبيان أهدافه ، والتعرف على أسرار شريعته ، فالمسجد بجانب كونه دار عبادة تقام فيه الصلاة ، فهو أيضاً معهد للتعليم ، ومجلس ومنتدى للاجتماع بين المسلمين ، وعلى مدى التاريخ الإسلامي الطويل ، كان المسجد من ركائز الجماعات الإسلامية ، وحارساً للعالم الإسلامي ، وفضلاً عن الجانب الروحي والتعليمي للمسجد ، فقد أدى المسجد على مدى العصور دوراً اجتماعياً بارزاً يمكننا أن ندركه إذا ما طالعنا كتابات الرحالة المسلمين كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما ، فهؤلاء كانوا إذا ما نزلوا في بلد لا يعرفون فيه أحداً يتوجهون مباشرة إلى المسجد ، وكثيراً ما كانوا يحلون في ضيافة رجل من البلد تعرفوا عليه في المسجد ، فهو مركز اتصال بين أفراد الجماعة الإسلامية ، فهو النواة التي نشأت حولها جماعة إسلامية جديدة ، حيث كان التجار والمهاجرون المسلمون إلى بلد غير إسلامي يقيمون زاوية فتنشأ حولها جماعة جديدة ، وهكذا في مكان آخر ، وبهذه الطريقة انتشر الإسلام في مناطق شتى من أنحاء الأرض .

و يذكر لنا التاريخ أن مساجد الإسلام الأولى كالمسجد الحرام و المسجد النبوي الشريف ، وجامع قرطبة ، والجامع الأزهر ، والجامع الأموي وغير ذلك من الجوامع الشهيرة كانت ولا تزال منارات تضيئ الدروب لأجيال عديدة ، فإليها كان يفد طلاب العلم والمعرفة ، وقد نقل الغرب الكثير من العلوم والمعارف عن هذه المساجد ، وحتى في عصور التخلف ظلت هذه المساجد منارات شامخة ، ومجالس جامعة لكبار العلماء ، و رواد العلم والمعرفة ، ومراكز تذود عن حمى الوطن والدين ، كما كان للأزهر مثلاً دور في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر والشام ، ثمّ مقاومة الاحتلال الإنجليزي ذلك الدور الذي استطاع أن يؤديه باقتدار علماء مخلصين آمنوا

www.nidaulhind.com

بأن رسالتهم لا يمكن أن تنحصر في الصلاة ، بل هي في شموليتها تتجاوز ذلك لتشتمل كافة أمور الحياة من دين ودنيا ، ومن ذلك المجال الاقتصادي .

فللمسجد دور هام في توجيه المسلمين إلى الأعمال النافعة لهم ، من حيث التجارة والفلاحة والصناعة وعمارة الأوطان ، يقول جلّ شأنه : ﴿ الذين يقيمون الصلاة * ويؤتون الزكاة * وهم بالآخرة يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم * وأولئك هم المفلحون ﴾ ، ويقول الرسول الأعظم ﷺ : "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا خيركم من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه" .

والمسجد يعمل على تبصرة الناس بطرق الكسب الحلال ، و وجوه إنفاق الأموال فيما يعود على الفرد والجماعة الإسلامية بالخير العميم ، كما يقوم أيضاً بتوضيح علاقة العامل بصاحب العمل وحقوق العامل و واجباته تجاه صاحب العمل ، حتى تكون علاقتهما مبنية على أسس واضحة ليس فيها ظالم ومظلوم ، أو غابن ومغبون ، كما يعمل المسجد على تبصرة الناس بأن الإسلام يبغض الفقر والاحتياج ، ولذلك يحث المسلمين على الإنتاج والعمل ، لأنه طريق مكافحة الفقر والاحتياج ، يقول ﷺ : "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه" .

هذا شئ يسيرٌ من دور المسجد في نهضة المسلمين الاقتصادية والعمرانية والصناعية والتجارية .

هذه العقيدة التي تجمع الشتات ، وتلم الشعث ، وتربط الأفراد بعضهم ببعض دون نسب ولا صلة فتذوب أمامها كل الفوارق ، وتزول بها الحواجز ، حيث تسود في المسجد روح المساواة وأفضل مثال على ذلك هو الصلاة التي تتمثل فيها المساواة والنظام والطاعة والوحدة إذ لا فرق بين غني وفقير ، أو كبير وصغير ، أو حر و عبد ، فيها تصف الصفوف ، وتتلاصق الأكتاف وتخضع الجموع لقيادة واحدة متمثلة في إمام المسجد .

فالمسجد معسكر تدريبي لغرس النظام والتنظيم في نفوس أهله ، حيث أن الصلوات التي تقام فيه هي دروس على النظام من ناحية ضبط الوقت ، ومن ناحية التسوية ، كما أن فيه تمريناً على متابعة الإمام في كل حركاته وسكناته ، وتعليماً على اختيار من هو أحق بالتقدم وذلك خوفاً من أن يعطى

www.nidaulhind.com

شئ إلى غير أهله ، فالمسجد على هذه ضرورة دينية وسياسية واجتماعية بالنسبة لكل مسلم على حدة ، وبالنسبة لجماعة المسلمين عامة .

والرسول الكريم ﷺ ، جعل من المسجد دار ندوة يجتمع فيها بالمسلمين يشاورهم في أمور دينهم ودنياهم ، ويعرض عليهم كل ما يتصل بأمورهم من سلم أو حرب ، ولعل أبرز مثال على ذلك هو ذلك الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في مسجده عليه الصلاة والسلام ، وذلك للتشاور حول الطريقة التي يخرج بها المسلمون لملاقاة أعدائهم من قريش على أثر هزيمة المشركين في معركة بدر الكبرى ، هل يخرج المسلمون خارج المدينة ؟ أم يدافعون عنها وهم في داخلها ؟ ولعل هذا هو الباعث الأول للرسول الكريم ﷺ على الأمر ببناء المسجد في المدينة أول ما قدم إليها مهاجراً، إذ لم يكن القصد منه أن يتخذه المسلمون معبداً تؤدى فيه شعائر العبادة فحسب ، ولكنه كان يهدف إلى معنى روحي واجتماعي وسياسي ، وهكذا كانت المساجد على مدى التاريخ البشري تقوم بجملة من الأنشطة في مختلف المجالات على أفضل وجه .

ولكي نعيد للمساجد هذه الأدوار الهامة كما كان سالف حالها ، فإننا نوجه الأنظار إلى ضرورة مراعاة المفاهيم التالية :

☆ أولاً : استيعاب رسالة المسجد ، وفهم أنها رسالة شاملة ، وليست قاصرة على الشعائر التعبدية ولكنها تشمل الإسلام كله .

☆ ثانياً : السعي الجاد في إحياء رسالة المسجد ، وعمارة المساجد على الوجه الحقيقي : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ .

☆ ثالثاً : العمل على إيجاد المسجد في كل قرية ، وفي المدينة في كل شارع ، وحماية حرمته والعناية به وبمرافقه ، والتوسع في مجالات أنشطته التي كانت تزاول فيما مضى .

ومما نلفت الأنظار إليه ، أن الرسول الكريم ﷺ حين أقر ببناء أول مسجد في الإسلام وهو مسجد قباء ، فقد كان ذلك لتخصيص مكان كمقر للاجتماع ويؤدي فيه المسلمون صلواتهم جماعة ، دون أن يخل ذلك بالترخيص للمسلم بأداء الصلاة في أي مكان لقوله ﷺ : "وجعلت لي الأرض طيبة مسجداً وطهوراً" .

www.nidaulhind.com

❁ التطور المعماري للمساجد :

☆ أولاً العناصر الأساسية في عمارة المساجد :

حين أمر رسول الله ﷺ ببناء مسجده في المدينة المنورة ، جاءت عمارته منبثقة من البيئة المحيطة به ، سواء من حيث الشكل المربع ، ومن حيث المواد التي استخدمت في بنائه من اللبن والطين والحجارة والسعف .

ولقد ظلت الخصائص العمرانية الأساسية للمسجد على حالها ، من حيث مدلولاتها ومتطلبات المسجد كدار عبادة وعلم ، وإن تنوعت المضامين والأساليب ، وفق البيئات الكثيرة التي وصل إليها الإسلام ، وانتشر فيها ، والتي عكست - بالضرورة - كثيراً من تلك البيئات ، مما نراه بوضوح في أقاصي آسيا ، وأقاصي إفريقيا ، وفي الصين ، وشبه القارة الهندية ، ثم في الأسلوب العثماني بمميزاته الواضحة المعروفة .

وفي بادئ الأمر ، كان بناء المساجد في الأمصار ، يقتصر على مسجد جامع واحد في كل مدينة ، تحقيقاً للمقصد الشرعي الخاص بوحدة الجماعة ، يستدل على ذلك بالكتب التي أرسلها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ ، إلى ولاته في بلاد العراق والشام ومصر ، ولكن اتساع رقعة الأقطار التي انتشر فيها الإسلام جعل من الضروري إنشاء مساجد عديدة في مواقع متفرقة من المدينة الواحدة ، مع الاقتصار على مسجد جامع فيها ، بحيث يؤدي المسلمون صلاة الجمعة في المسجد الجامع ، ويؤدون باقي صلواتهم في مساجد أحيائهم .

ومع اتساع رقاع المدن ، وتزايد عدد السكان ، أنشئ في المدينة الإسلامية الواحدة ، أكثر من مسجد جامع واحد ، بينما تزايدت أعداد المساجد ، حتى بلغت في بعض المدن الإسلامية مئات من المساجد ، وكثير من الجوامع .

وعلى هذا ! فقد استقر العرف على إطلاق كلمة "المسجد" على كل مكان لتعبد المسلمين مهما كانت مساحته ، وإطلاق تعبير "الجامع" أو "المسجد الجامع" على المساجد الكبيرة التي تستوعب المصلين أيام الجمع ، وعلى هذا فإن كل جامع هو مسجد ، ولكن ليس كل مسجد جامعاً .

www.nidaulhind.com

ثم دخلت على المسجد أشياء أخرى ، نتيجة للحاجة إليها ، ثم تكاملت مقومات المسجد الأساسية في النواحي التالية :

☆ ١- المنبر : والمنبر في اللغة العربية هو : مرقاة متنقلة ذات درجات ، وله تعاريف أخرى في المراجع اللغوية تتفق وهذا المعنى ، وكان رسول الله ﷺ ، يخطب في المسلمين بمسجده الشريف ، وهو واقف عند أحد الجذوع التي تحمل السقف ومتكئ على عصا من خشب "الدوم" ولاحظ المسلمون أن هذا الموقف يشق رسول الله ﷺ ويتعبه فاقترحوا عليه أن يتخذ شيئاً يجلس عليه ويستريح ، فوافقهم على ذلك ، وصنع له رجل يدعى "كلاب" كان في خدمة عمه العباس بن عبد المطلب ، منبراً من خشب الأثل ، يتألف من ثلاث درجات ، الأولى والثانية منها لصعوده ، والثالثة لجلوسه ، وارتفاعه ذراعان وثلاث أصابع وعرضه ذراع واحد ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة .

وفي العقود القليلة التي تلت الهجرة النبوية ، وتكاثر أعداد المساجد في البلاد التي دخلت في دين الله ، كانت المساجد بلا منابر ، وكان الخطيب يقف مستنداً إلى عصا من الخشب تأسياً برسول الله ﷺ .

وحين بنى والي مصر عمرو بن العاص ﷺ ، مسجده في الفسطاط بمصر ، أقام فيه منبراً ، ولكن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ ، أمره بإزالته ففعل .

وأقدم منبر ، بعد منبر مسجد رسول الله ﷺ ، هو المنبر الذي أقامه "قرة ابن شريك" عام ١٣٢هـ ، في مسجد عمرو بن العاص .

وتوالت ، بعد ذلك ، إقامة المنابر في المساجد ، في مختلف ديار المسلمين ، وزيد في عدد درجاتها ، بسبب اتساع مساحة المساجد ، وكثرة عدد المصلين ، ولكي يتمكن المسلمون من رؤية الخطيب ، ويتمكن الخطيب من رؤيتهم .

وبات "المنبر" جزءاً أساسياً من مقومات المسجد الجامع ، وهو يصنع - في الأغلب - من الخشب ، وأبدع الفنانون المسلمون في نقش المنابر ، وزخرفتها ، واستخدموا الأخشاب الثمينة في صنعها .

☆ المحراب : وردت كلمة "المحراب" في القرآن الكريم أربع مرات ، و وردت كلمة "المحاريب" مرة واحدة ، وكلمة "المحراب" كلمة عربية قديمة ، وردت في معاجم اللغة في مادة "حرب" ومن معانيها : صدر المجلس ، ومنه

www.nidaulhind.com

محراب المسجد ، والمحراب أيضاً الغرفة ومنه قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ قيل من المسجد وكان ورودها في كتاب الله بمدلولاتها القديمة ، حيث تعني كلمة "محراب" : الغرفة العالية أو المستقلة ، أو أفضل مكان في القصر أو البيت .

و قد تعارف العلماء على إطلاق كلمة "المحراب" على جدار القبلة ، و قد استعمل رسول الله ﷺ الحربة والعنزة في تحديد إتجاه القبلة أثناء الصلاة في الفضاء ، ولم تعرف الكلمة بمعناها المعروف اليوم ، إلا بعد أن انتشر الإسلام مشرقاً ومغرباً ، وباتت هناك حاجة ملحة لتحديد اتجاه القبلة التي أمر الله تعالى عباده بالاتجاه إليها في صلواتهم .

ويروي في هذا الشأن ، أنه عندما أعاد والي المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز ، بناء المسجد النبوي الشريف ، دعا علماء المدينة ورجالاتها لتحديد مكان القبلة في البنيان الجديد ، قائلاً : "تعالوا : أحضروا بنيان قبلتكم .. لا تقولوا غير عمر قبلتنا" .

وحين بني عمرو بن العاص مسجده الذي سماه مسجد الفتح في الفسطاط "القاهرة القديمة" شارك ثمانون رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ في تحديد مكان القبلة ، وبعد أن أصبح المحراب جزءاً أساسياً في عمران المساجد ، استقر معنى كلمة "المحراب" على أنها تجويف في جدار المسجد باتجاه الكعبة المشرفة ، وتلاشى استعمال الكلمة في غير هذا المعنى ، عدا ما ورد في القرآن الكريم بطبيعة الحال ، ولا يعرف بالتحديد من كان أول من أوجد المحراب في المسجد ، فهناك أقوال تنسب ذلك إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ ، وأخرى تُنسب إلى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، وهناك أقوال تُنسب إلى آخرين ، وقد يفسر تعدد الروايات هذا ، بأن كلمة "المحراب" استخدمت - كما أشرنا - بمعان عديدة ، مما لا يمكن معه التأكد ما إذا كان المقصود هو "المحراب" كما هو معروف اليوم ، أو أن المقصود شئ آخر ، على أن تحديد اتجاه القبلة ، كان أول - وأهم - ما وجه بناة المساجد اهتمامهم إليه ، في مختلف الأقطار التي دخلت في الإسلام .

www.nidaulhind.com

وكان بناة المساجد أولئك ، يكتفون بوضع علامة على الجدار المتجه نحو القبلة ، أو بدهان جزء من الجدار بلون مميز ، أو بوضع بلاطة بدلاً من ذلك ، وبذلك يقف الإمام إزاء الجدار ويؤدي الصلاة .

أما تجويف مكان المحراب في الجدار المتجه نحو القبلة ، فأغلب الظن أن أول من نفذه هو والي المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز ، عندما أعاد بناء المسجد النبوي الشريف في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد استأثر "المحراب" باهتمام بناة المساجد من الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والولاة ، في سياق عمارة المساجد ، حتى اشتهرت محاريب معينة ، في التراث المعماري الإسلامي ، تنسب إلى من أنشأوها ، أو أنشئت في عهودهم .

☆ ٣- القبة : عندما بني رسول الله ﷺ ، مسجده في المدينة المنورة ، كان سقفه من السعف المحمول على جذوع النخيل ، وظل الحال على ذلك ، فيما بني من مساجد ، ولم تكن "القبة" قد دخلت بعد على بناء المساجد .

أما أول قبة بنيت في الإسلام ، فهي قبة مسجد الصخرة المشرفة في القدس ، التي بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ ، والتي تعتبر - إلى اليوم - أجمل القباب الإسلامية وأكثرها بهاء ورواء ، ولقد قيل الكثير في محاولة تفسير ظاهرة إنشاء القباب في المساجد ، إلا أن أيا من تلك الأقوال ، لم يزد على أن يكون اجتهاداً ، ولا يوجد بين أيدينا أي مصدر يقدم التفسير الحاسم في هذا الموضوع ، ومهما يكن من الأمر ، فالثابت أن القباب باتت جزءاً أساسياً في معظم المساجد ، مع إعطائها لمسات عربية إسلامية ، جعلتها تختلف بشكل واضح ، عن القباب المستخدمة في المعابد غير الإسلامية وفي القصور والدور الكبيرة ، في البلاد غير الإسلامية .

وقد تفنن المعماريون المسلمون في بناء القباب بأشكال هندسية تلفت الانتباه ، وتعبر عن روح - فنية مرهفة - .

فهناك القباب المستديرة ، والمضلعة ، والمؤلفة من دور واحد ، أو دورين أو أكثر ، وهناك القباب ذات الزخارف الدقيقة ، والأخرى المغطاة بصفائح أو الرصاص .

و بلغ بناء القباب وزخرفتها ، قمة إبداعه في عهود الفاطميين والمماليك في مصر ، وما زال معظمها باقياً إلى يومنا هذا .

www.nidaulhind.com

كما اعتبرت القباب ، كأسلوب مميز في العمارة العثمانية ، التي اتسمت ببناء قبة كبيرة في المسجد الواحد ، ومعها قباب صغيرة كثيرة ، وهو ما نراه بوضوح في معظم المساجد العثمانية الكبيرة ، داخل تركيا وخارجها ، وبشكل خاص في القطاع العثماني من عمارة المسجد الحرام المبارك في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة .

☆ ٤- الصحن : وصحن المسجد ، هو المساحة المكشوفة منه ، والتي تتصل بحرم المسجد ، وأروقته ، وجدرانه الخارجية ، ويسميها البعض سرحه ويعتقد أن اتخاذ الصحن في المساجد التي بنيت في الأمصار التي دانت بالإسلام ، هو اقتداء بعمارة مسجد رسول الله ﷺ ، حيث كانت فيه مساحة مكشوفة بين مظلتين مغطاتين ، إحداهما في الجهة الجنوبية ، والأخرى في الجهة الشمالية .

وفي كثير من المساجد ، يضم الصحن مصادر للمياه يتوضأ منها الناس - وهي - في الأغلب على شكل "بحيرات" يندفع إليها الماء الجاري ، وتشكل - إضافة إلى مهمتها الأساسية - لمسة جمال على صحن المسجد كما في المسجد الأموي بالشام .

نداء الهند

كذلك يستفاد من الصحن في استيعاب المصلين إذا زادوا عن طاقة حرم المسجد وفي المساجد الكبيرة ، كالمسجد الأموي في دمشق ، ومسجد ابن طولون في القاهرة ، أقيمت في صحنيهما قباب صغيرة ، ذات أبواب مقفلة ، وضعت فيها خزينة الدولة ، وأوراقها و وثائقها الهامة .

☆ ٥- الرواق : كان لأروقة المساجد دور كبير في أسلوب تدريس العلوم الدينية في المساجد الكبيرة ، والرواق هو الممر العريض المسقوف ، الذي يحيط بجميع - أو معظم - جهات المسجد ، وكان يسمى أيضاً "المجنبة" وهي الكلمة التي استعملها كثير من قدامى المؤرخين في وصف بعض المساجد ، وتحت هذه الأروقة ، كان العلماء يلقون دروسهم على المتعلمين ، ومن هذه الكلمة اشتقت أسماء الأروقة الموجودة في الجامع الأزهر بمصر ، حيث يجتمع

www.nidaulhind.com

الدارسون من جنسية معينة في مكان واحد - سمي رواقاً - ليتلقوا العلم من أساتذتهم فيه ، فكان هناك رواق المغاربة ، ورواق الأتراك ، ورواق الشوام ، ورواق السودان ، ورواق الهنود ، وغيرها ، وكانت تلك الأروقة إضافات إلى المبنى الأساسي للأزهر ، تبرع بها أهل الخير .

أما أول من اتخذ الأروقة في المساجد ، فالغالب أنه الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، عند ما أضاف أروقة إلى المسجد النبوي الشريف حين وسعه .

وهكذا ، أصبحت إضافة الأروقة إلى المساجد ، وسيلة لتوسعتها دون المساس بالمبنى الأساسي ، وهناك أيضاً من العناصر التي دخلت على المسجد كالشمسيات والقريات ، والشمسية شباك أو فتحة مزخرفة في جدار المسجد تقفل بلوح من الرخام أو الخشب المخروم ، أما القرية : فهي فتحات مستديرة أو مربعة أو مسدسة أو مثمنة الهيئة تفتح في أعلى الجدران ، أو في رقاب القبب وتغطى بالزجاج الملون .

كما توجد أيضاً الزخارف والحليات التي تفنن المسلمون في ابتداعها ، وجانبها الجمالي يأتي من تكرارها وتوازنها لملء الفراغات ، ولوقاية الداخل إلى المسجد من الشمس والمطر وجدت الشماسات ، وهي مظلة خشبية مزخرفة تقام فوق الأبواب و النوافذ ، و تعد إحدى العناصر الجمالية في عمارة المسجد .

[للبحث صلة]

www.nidaulhind.com

تطور المساجد في التاريخ الإسلامي

(٣/الأخيرة)

الدكتور شوكت محمد عليان
أستاذ الثقافة الإسلامية - الرياض

❁ ثانياً : العناصر المعمارية التي دخلت على المسجد :

فضلاً على العناصر الأساسية للمسجد ، والتي ذكرناها آنفاً ، هناك عناصر أخرى دخلت على عمارة المسجد فيما بعد ، وأصبحت متممة لعمارته ومشيرة إلى مكان بنائه ، ومن هذه العناصر الإضافية : المئذنة ، والقبة ، والعقد ، والعمود ، والزخارف الأخرى التي تؤدي دورها كعناصر معمارية أو زخرفية مكملة .

☆ ١- المئذنة : والمئذنة هي المنارة التي يعلوها المؤذن ينادي إلى الصلاة في مواقيتها بالصيغة المعروفة :

= أللّه أكبر .. أللّه أكبر ... أللّه أكبر .. أللّه أكبر .

= أشهد أن لا إله إلا اللّه ... أشهد أن لا إله إلا اللّه .

= أشهد أن محمداً رسول اللّه ... أشهد أن محمداً رسول اللّه .

= حي على الصلاة ، حي على الصلاة .

= حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

= أللّه أكبر .. أللّه أكبر .

= لا إله إلا اللّه .

وكان أول من رفع الأذان ، هو بلال بن رباح ﷺ ، مؤذن رسول اللّه ﷺ ، ولم يكن هناك مكان معين في المسجد لرفع الأذان ، فكان بلال يرتقي اسطوانة مرتفعة في دار عبد اللّه بن عمر ، المواجه للمسجد النبوي الشريف .

و يجمع مؤرخو المسلمين ، على أن المساجد التي بنيت في الجزيرة

www.nidaulhind.com

العربية وسواها من الأمصار التي دخلت في دين الله ، كانت بلا مآذن ، وأن أول من بني مئذنة في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، وذلك في المسجد الجامع الكبير بدمشق الشام .

ومع مرور الزمن ، باتت المئذنة قطاعاً قائماً بذاته من فنون العمارة الإسلامية ، فقد وجهت لها عناية كبيرة في التصميم والتنفيذ ، وتفاوتت ارتفاعاتها إلى عدة عشرات من الأمتار ، وزخرف بناؤها ، وزين بالنقوش الإسلامية البديعة ، وأعطيت أشكالاً شتى ، ما بين مدورة ، ومضلعة ومربعة ، وقاعدتها تتناسب طرداً مع ارتفاعها ، وبداخلها سلم حلزوني يصعد إلى شرفتها حيث يقف المؤذن وينادي للصلوات .

وفي بعض المساجد ، لا سيما الكبيرة منها ، بنيت أكثر من مئذنة ، و وصل عددها في بعض المساجد إلى عشر ، كما هو الشأن في المسجد النبوي الشريف ، عبر مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ، في التوسعة الكبرى الحديثة .

وأطلق على المئذنة - أيضاً - اسم "المنارة" وقد جاءت التسمية من القناديل التي كانت تضاء فيها ليلاً ، ثم استخدمت في إضاءتها الطاقة الكهربائية على أن اسم "المنارة" كان منتشراً حتى قبل إنارة المآذن ، وفي أخبار العهد الأول من الإسلام ، قيل : إن بلال بن رباح ﷺ ، كان يؤذن من أعلى منارة يقف فيها على اسطوانة - أي عمود - في بيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ويعتقد - في هذا الصدد - أن التسمية جاءت من "الهداية" حيث الصلاة عمود الدين ، وخلال حوالي ألف ومائتي سنة ، بعد الهجرة ، بات إنشاء المآذن جزءاً لا يتجزأ من إنشاء المساجد ، وتنوعت أشكال المآذن وهندستها ، بتنوع العصور التي مرت على ديار المسلمين ، واشتهرت بعض المدن الإسلامية بعدد مآذنها ، كما هو الحال في القاهرة التي تعرف بمدينة الألف مئذنة ، واستنبول التي تعرف بمدينة الـ "٤٤٤" مئذنة .

و صنف المتخصصون في العمارة الإسلامية ، طرازات المآذن و أشكالها ،

www.nidaulhind.com

في فئات تتصل إما بالحقب التاريخية ، أو بالبلد الإسلامي الواحد ، أو بأشخاص بناتها من الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء .

وأنشئت بعض المآذن من طبقات عديدة ، كل طبقة منها تختلف في تصميمها عن الطبقات الأخرى ، وأشهر أمثلتها مئذنة مسجد ابن طولون في القاهرة ، التي تتألف من ثلاث طبقات أولها - وهي القاعدة - مربعة والثانية اسطوانية ، والثالثة ذات ثمانية أضلاع .

وهناك اليوم عدد لا يحصى من طرازات عمارة المآذن في شتى أنحاء العالم ، يتفق كل منها مع البيئة التي أقيمت فيها ، باستيحاء الطابع المعماري الغالب في تلك البيئة ، وتطويره بما يتناسب مع هندسة المساجد ومآذنها .

وفي هذا الصدد ، يمكن أن نشير إلى الطرازات العربية ، في شبه الجزيرة العربية ، و الطرازات السلجوقية ، و المملوكية ، و المغولية ، و الأتابكية ، والأيوبية ، وقبلها الأموية والعباسية ، وطرازات آسيا الوسطى ، وشمال إفريقيا ، والأندلس وغيرها .

ففي كل من هذه الطرازات روائع من الإبداع المعماري ، الذي يعتبر فناً إسلامياً خالصاً ، تأثر به معماريو أوربا ، واقتبسوا منه في عمارة أبراج كنائسهم ومعابدهم .

ومن نماذج المآذن التي بلغت حداً عالياً من الروعة تصميماً وتنفيذاً ، مآذن المسجد الحرام في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ، والجامع الأزهر ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزرق ، ومسجد السلطان حسن في القاهرة ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الكبير في سامراء (وفيه المئذنة الملوية المعروفة) ، ومئذنة مسجد زكريا الكبير في حلب ، و مسجد النوري في الموصل ، و مسجد أيا صوفيا ، و جامع شاهزاد في استنبول ، والمسجد الكبير في الرباط ، وجامع القيروان ، ومسجد الزيتونة في تونس ، والجامع الكبير (الخيرالدا) في الأندلس - أسبانيا ، ومسجد مدرسة شارمنار في بخارى ، ومسجد مدرسة شيردور في سمرقند ، ومسجد مسعود

www.nidaulhind.com

الثالث في أفغانستان (غزنة) ، ومسجد قطب الدين ، ومسجد شاهجهان ، وكلاهما في دلهي ، ومسجد جهانكير في لاهور ، وغيرها مئات ومئات .

☆ ٢- القبة : نشأت القبة في المسجد لغرض تغطية المباني المستديرة وهي من أجمل العناصر المتعاونة على إبراز مظهر الجوامع وإظهار تكوينها المتناسق المتزن مع المآذن ، بحيث أصبح شكل هذين العنصرين المعماريين من أهم عناصر تكوين الجامع ، بالرغم من أنهما لم يكونا من العناصر التي ظهرت مع المسجد الأول ، وكان البناء الأول البسيط للقبة يقوم على هيكل دائري الشكل من الخشب يوضع فوق الجدران لتبنى فوقه القبة من الخشب بالشكل المطلوب ثم تكسى من الخارج بصفائح من الرصاص ، ومن الداخل بطبقة من بلاط الجبس أو المصيص ، وهذا هو الأسلوب الذي أتبع في بناء أول قبة في تاريخ العمارة في العصر الإسلامي ، وهي قبة الصخرة المشرفة .

☆ أول قبة للمسجد في الإسلام :

وأول قبة بنيت في المسجد في الإسلام هي التي أمر بها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في بناء قبة الصخرة المشرفة سنة ٧٢هـ الموافق ٦٩١م بالحرم القدسي الشريف ، وكان بناء هذا المسجد على شكل قبة فوق الصخرة هو أول دخول شكل القبة في المساجد ، وقد أراد الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يكون هذا البناء الرائع متناسباً مع ما لهذا الموقع من تقدير وإجلال لما أنزل الله فيه من آيات ، فجاء بناء القبة المشرفة وزخارفها الجميلة غاية في الإتقان والروعة .

وبناء القبة المشرفة عبارة عن بناء حجري مثمن الشكل إذ أن قوامه مثمن على حوائط خارجية من الحجر الأصم ، وبداخله مثمن داخلي من الأعمدة والأكتاف ، وبداخل هذا المثمن دائرة أخرى من الأعمدة والأكتاف التي تحمل القبة المجنحة مثمنة الجوانب المحمولة على اسطوانة بها ١٦/نافذة من فوقها .

أما عن إنشاء القبة نفسها فهي مصنوعة من الخشب ، و تكسوها من

www.nidaulhind.com

الخارج طبقة من صفائح الرصاص للحماية من العوامل الجوية ، و تغطيها طبقة من الجبس كبياض داخلي عليه زخارف عربية ملونة بالألوان الجميلة الزاهية ، هذا عن قبة الصخرة المشرفة ، وقد تلى ذلك انتشار استعمال عنصر القبة في المساجد لما في ذلك من جمال معماري ، وما توفره للمكان من تهوية لازخة للمصلين ، فعندما تغطي القبة بيت الصلاة بالمسجد ، تسحب الهواء الساخن الذي يرتفع إلى أعلا ، فيخرج من النوافذ المطلة على الناحية المشمسة ، أما النوافذ التي في الناحية الظليلة ، فيدخل منها الهواء الرطب البارد ، وتستمر دورة التيارات الهوائية تماماً كما يحدث في مدخنة المدفأة التي تسحب الهواء الساخن المحمل بثاني أكسيد الكربون وتأتي بالهواء الجديد وبه الأكسجين النظيف ليساعد على التنفس في جو صحي .

وقد ظهر شكل القبة حسب التسلسل التاريخي بعد ذلك في مسجد الجامع الأموي بدمشق ، وقد أمر ببنائه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ الموافق ٧٠٦م .

وتعتبر قبة جامع ابن طولون في مصر مثلاً للقباب الإسلامية التي أخذت طابع العمارة الإسلامية التي اتجهت إلى أسلوب القباب المدببة التي اتبعت لتحاشي طول المدة المطلوبة لعمل القباب بالطريقة نصف الكروية التي كان يتحتم فيها الانتظار لجفاف المونة ، وهكذا نرى انتشار القباب وثبوت بنائها في معظم مباني المساجد بالأمصار الإسلامية ، وقد زادت أحجامها ، وخاصة في عمارة المساجد التركية حتى نرى أنها غطت محراب القبلة بكاملها تقريباً في محاولة لإخلاء ممر القبلة من الأعمدة حتى لا يعوق صفوف المصلين أي عائق .

☆ ٣- العقد : اهتم العرب في العصر الإسلامي بعمارة المساجد والجوامع ، وكانت تبنى على شكل صحن مكشوف وحوله إيوانات مسقوفة ، أهمها إيوان القبلة أو بيت الصلاة ، وكان السقف في البداية يصنع من الجريد ، وسعف النخيل ، ويحمل على أعمدة من جذوع النخل ، أو كان السقف يصنع من

www.nidaulhind.com

الخشب ، ويحمل على عمد فوقها الأعتاب التي تحمل السقف ، ثم تطورت إلى العقود الحجرية التي يستعاض بها عن الأعتاب الخشبية العادية ، وكان لهذه العقود دور هام في تجديد طراز العمارة الإسلامية في الأمصار المختلفة .

وللعقود أشكال مختلفة ، فمنها العقود نصف الدائرية ، ومنها العقد الدائري المرتد الذي يشابه حدوة الفرس ، ومنها العقد المرتد المدبب ، ومنها العقد المخموس ، والمخموس المرتفع ويطلق عليه المدبب ، وهو ينتج عن تقاطع دائرتين ، ولذلك فلانحنائه مركزان ، أما العقد المخموس ذو الثلاثة مراكز فيظهر من تسميته أن له ثلاثة مراكز ، وكذلك العقد ذو الأربعة مراكز ، أما العقد الثلاثي ، أو متعدد العقود فيطلق عليه كذلك متعدد الخانات أو المصفح أو المفصص ، ومنها كذلك العقد المستقيم الذي يعلوه عقد آخر منحني لتخفيف الحمل .

ونلاحظ أن أقوى هذه العقود هو العقد المدبب والمسنن ، لأن ثقل الأوزان المحملة عليه ينحدر إلى الأرجل ثم إلى كتف البناء ، كما نلاحظ أن هذه العقود هي الأساس في تطوير السقوف المقببة والقباب .

وقد تطور هذا الفن في البلاد الإسلامية من طرز مختلفة للعقود ومنحنياتها وزخارفها طبقاً لطبيعة البلد التي عمل بها واستعمل فنانوها وبناؤها مواد البناء المتوفرة فيها ، ولذلك فقد امتازت العمارة العربية ، بتنوع أشكال العقود .

☆ ٤- الأعمدة : تعتبر الأعمدة من أهم العناصر المعمارية الإنشائية بالمباني والمساجد ، وقد كانت في البدايات الأولى لبناء المساجد من جذوع النخل لتحمل السقف المصنوع من جريد النخل ، ولما انتقلت صناعة البناء من الطين إلى الأحجار ، عملت الأعمدة بقاعدة وساق وتاج أعلاها ، فالقاعدة هي التي يرتكز عليها العمود كأساس على الأرض ، والساق أو البدن الذي يعتمد عليه العمود ، والتاج وهو رأس العمود ، وهو الجزء الزخرفي العلوي الذي كانت فائدته من الناحية الإنشائية كمخدة أو قاعدة لتلقي الأحمال ونقلها

www.nidaulhind.com

إلى جسم العمود ، وكان الأقدمون يزخرفونه بالنباتات والأزهار ، ولذلك فإن أشكال هذه النباتات والزهور قد انتقلت إلى صناعة الأحجار مع تطور البناء فظهرت الأعمدة النخيلية ، وأعمدة نبات البردي ، وأعمدة نبات اللوتس .. إلخ.

☆ ٥- الشرّافات : والشرّافات هي النوافذ أو الشبابيك مختلفة الأشكال والأحجام ، وهي نوع من أنواع التجميل المستحب في معظم المباني ، وهي تتنوع إلى نوعين :

الأول : الشرافات المورقة ، وهي التي تمثل زخارف محورة من أشكال أوراق النباتات المختلفة في خطوط تجريدية بسيطة .

الثاني : الشرافات المسننة ، سواء كانت هذه الأسنان مائلة ، وهي التي يطلق عليها الشرافات المسننة المنشارية ، أو كانت بأسنان غير مائلة .

وفي الحقيقة أننا نجد في الشرافات عنصراً جمالياً من أهم الزخارف التي استعملت في الأبنية العربية عامة ، وفي أبنية المساجد بصفة خاصة ، وأصبحت من سماتها الظاهرة في مساجد الشرق العربي ، ومن هنا فقد اهتم بها الناس لما لها من تأثير جذاب ، فهي من العناصر الجميلة التي يستحسن أن لا نغفلها في بناء المساجد الجديدة .

نداء الهند

☆ ٦- المقرنصات : والمقرنصات هي زخارف تشبه خلايا النحل ، استعملت في المساجد كعامل إنشائي ، ثم استعملت كعامل زخرفي للتجميل ، وقد بدأ ظهور المقرنصات في القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم أقبل رجال المعمار على استعمالها في المباني الإسلامية وبناء المساجد ، وأصبحت من سماتها الظاهرة في تصميم الواجهات والمآذن والقباب والأسقف الخشبية والأعمدة ، واختلفت أشكالها باختلاف الزمان والمكان ، والغرض الذي تعمل من أجله .

والأصل في استعمال المقرنصات كعامل إنشائي كان للتدرج من السطح المربع إلى السطح الدائري الذي يراد إقامة القباب عليه وقد طور العرب كل الأفكار القديمة ، وتوصلوا في العصر الإسلامي الزاهر إلى فكرة الانتقال من المربع إلى المثمن لبناء القباب عن طريق المقرنصات التي أخذت تنتشر

www.nidaulhind.com

بسرعة ، فاستعملت في القباب والمآذن والأسقف الخشبية والأعمدة وغيرها من عناصر البناء الإنشائية والزخرفية ، كما أخذت المقرنصات أشكال متعددة حسب الاستعمال ، وحسب الشكل المطلوب .

❁ ب - الأشكال المعمارية للمساجد :

المساجد عامة على الرغم من تاريخها الطويل ، وتعدد أشكالها لم تخرج في تكوينها العام عن هيكل مسجد رسول اللّه ﷺ في المدينة المنورة . فالمعماريون المسلمون وإن تفننوا في ابتداع أشكال المساجد وصحونها ومحاريبها وقبلاتها ومنابرها وأروقتها لم يضيفوا عنصراً رئيسياً واحداً إلى عمارة المساجد الحديثة .

ويمكن تقسيم الأشكال المعمارية للمساجد تبعاً لقدمها التاريخي إلى سبعة أشكال :

☆ الشكل الأول : المغربي .
☆ الشكل الثاني : الأندلسي .
☆ الشكل الثالث : المصري .
☆ الشكل الرابع : السلجوقي .
☆ الشكل الخامس : الهندي .
☆ الشكل السادس : الصفوي .
☆ الشكل السابع : العثماني .

نداء الهند

فأما الشكل المغربي فأهم ملامحه تركيزه على بيت الصلاة والاهتمام بتعميق جوفه حتى يصبح مربعاً أو قريباً من المربع ، وتمتاز مساجد الشكل المغربي بمنابرها البديعة كما هو ماثل في مسجد عقبة بن نافع في القيروان .

أما الشكل الأندلسي فقد ولد مع إنشاء الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع على يد عبد الرحمن الداخل ومن بعده ابنه هشام ، فهو إذا يأتي زمنياً تالياً للشكل المغربي ، وهو قائم على طريقة المزاوجة في صنجات العقد بين الحجر المنحوت وقوالب الآجر ، وقد تعمد صانعوه أن يكون السقف خشبياً خفيفاً لكيلا يزيد الثقل على الأعمدة ، و زينت أبوابه بشماسات حقيقية أو

www.nidaulhind.com

صماء ، وهذا المسجد يمثل طراز الخلافة أحد الطرز الأندلسية .

هناك من الطرز الأندلسية الطراز المدجن نسبة للمسلمين الذي بقوا في نواحي الأندلس التي سلبها النصارى ، وقد تطور في آخر صورة إلى طراز زخرفي مثقل بالزخارف والشماسات والقمريات ، وهذا التطور قد عد آخر فصل في تاريخ العمارة الإسلامية في الأندلس .

أما الشكل المصري فقد تميز برصانة البناء ومتانة تأسيسه والمحافظة على الوحدة الفنية في البناء مع الحرص على توازن الهيئة العامة للمبنى ، وباستثناء الأزهر تتميز كل المساجد المصرية بهذا التوازن العام في المبنى ، فلو نظرنا إلى مئذنة مصرية نلحظ فيها هذا التوازن من حيث قطر الدائرة والارتفاع وعدد الشرفات .

وأما الشكل السلجوقي فلا يتخذ هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة ، وإنما الرابطة فيه تتعلق بخصائصه التفصيلية من ناحية المواد المستعملة والطرق الفنية ، وقد أحسن المعماريون استخدام الأحجار ما بين حجرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر ، فخامات الصخور التركية السلجوقية بديعة في صلابتها وتكوينها ، كما أن جودة الآجر الذي استخدمه المعماريون لا تقل عن جودة الحجارة ، ومن هنا جاءت مساجدهم متينة ومحكمة ومزخرفة بإحكام ودقة ، واستطاعوا بمهارة أن يصنعوا الواجهات والعقود والأزر والمثلثات الكروية والقباب والمآذن ، كما تفننوا في ابتكار أشكال زخرفية بديعة ، وبرعوا في استخدام الجص والفخار والخزف ، وابتدعوا الفسيفساء للزخرفة ، كما استخدموا التصوير على الخشب والمعادن والزجاج .

❁❁❁